مرقس ١٠، ٣٢-٤٥

٣ الأحد الخامس من الصوم (مريم المصريّة)

عشقان من قلب واحد

تُظهر حياة هذه البارّة حقيقةً عميقة في الكيان البشريّ. كيف، وكما يقول قنداق يوم الأحد، "أنكِ كنت أوّلاً متوحّلة في الأدناس... لكنك ضارعتِ بعدها سيرة الملائكة...". نعم هذه طبيعة الكائن البشريّ، وذلك بفضل حريّته. أنّه يمكن أن يصير ملاكاً أو أن ينتهي إلى كائن حيواني متوحّش. وكما يقول المغبوط أوغسطين يمكن للإنسان أن يصير جسدانياً حتّى روحه أو روحياً حتّى بشرته. حياة القدّيسة مريم المصريّة تعطي مثلاً عن هذَين المشهدَين في إنسان واحد.

يرفض الكتاب المقدّس الصراع الانطولوجيّ الفلسفيّ بين الروح والجسد. ولا يقبل نظريّة الفلسفة، أن الجسد سجنٌ ومؤدّب للنفس. إن الصراع بين الروح والجسد هو تضاد أخلاقي، إنّه التضاد الموجود بين أن "نشتهي الخليقة" أو أن "نشتهي الخالق". والإنسان مجرّبٌ بهذا الصراع، قلبه معرض لعشق الخالق كما لعشق الخليقة. فاختيار الخالق عشيقاً للقلب يجعل الإنسان روحانياً، يستخدم الخليقة بعفّة، ولا ينقصه حبّ لأنّه ملآن من حبّ الخالق. واختيار الخليقة معشوقة للقلب هو زنى روحي، يردي بالإنسان إلى مستوى الكائنات الحيوانيّة.

"لأنّه حيث كنزك هناك قلبك" (متى ٦، ٢١). إنّ قيمة الإنسان تساوي قيمة الرغبات التي في قلبه. وكرامته هي بمقدار كرامة المواضيع التي يحبّها. الإنسان كائن ديناميكي متطوّر يصير إلى ما في قلبه من مُثلٍ ورغبات، فإذا ما اختار لذاته ثمار الروح رغباتٍ يجعل حتّى جسده روحانيّاً، وإذا ما اختار الدنيويّات "يطفىء الروح" (١ تسا ٥، ١٩).

ما نعنيه بكلمة قداسة هو أن نصير كالقدّوس، وبكلمة أخرى هو أن ينطبق ما في قلبنا على ما في قلب الله. حين يصير الله هو الشوق الوحيد في القلب الإنسانـــيّ ويطرد منه أي تعلق آخر، حـــين لا تبقى في القلب إلا رغبة وحيدة أنْ "ليأت ملكوتُك، لتكن مشيئتك".

لا يقوم الوجود الإنسانـــيّ على الولادة والنمّو وحسب، وإنّما على طريقة هذا الوجـــود، أي على شخصيّة الكائن. لا يهم إن كنتَ موجوداً فقط، الأهمّ هو كيف توجد! السؤال المهمّ ليس: مـــن أين يأتي الإنسان، حتّى ولو كان من قرد ثم تطوّر! لكن المهمّ هو "إلى أين يذهب الإنسان"؟ الغاية هي أن يصير إلى إله، ما دام هو على صورته.

أهمّ ما في الحياة الروحيّة المسيحيّة أنّها تحدّد علّة الخطيئة في الخُلقِ وليس في الخَلقِ، أي في الحريّة وليس في الطبيعة. تبدأ الخطيئة من الروح وليس من الجسد. السقوط الأول تمّ في عالم الملائكة حيث لا جسد لهم. تبدأ الخطيئة من الذهن وتعمل في الجسد وليس العكس. الجسد هو من المنفعلات وليس من الفاعلات، في رأي القدّيس يوحنا فم الذهب. الخطيئة هي إساءة من الروح تجاه الجسد، وليس العكس. لم يخطئ آدم لأن جسده أرغمه، بل لأنّ روحه تكاسلت تجاه الحبّ الإلهيّ، عندما اشتهتْ العالَمَ بـــدل خالقه. الجسد هو خادم كما للخيار الروحيّ الخاطئ كذلك لخياره الصحيح.

لذلك بداية الحياة الروحيّة الحقيقيّة هي "اعرفْ ذاتك"، أي تعرّف على ما في قلبك من أشواق، وحدّد لهذا القلب ما عليه أن يحبّ أو أن يرفض. إيماننا أن العشق الحقيقيّ الأصلي للقلب البشريّ هـــو الإلهيّات وليس الدنيويّات. وتعلّق الإنسان بما هو "دونـــيّ" هو دليل على تضليل للقلب مسبق.

بحسب القدّيس غريغوريوس النيصصي، إن القلب ميّال بالأصل إلى أصله، أي إلى الله. لـــذلك هناك حالات نادرة عدل فيها بعض الروحانيّين عن العشق الإلهيّ إلى الدنيا، وبدرجات عاديّة. لكـــن حالات كالمصريّة مريم هي كثيرة في التاريخ البشريّ، التي رمى فيها بشريّون كلّ متطلبـــات البشـــرة ورغباتها بعد انغماس رهيب حتّى الأوحال فيها، ومن ثم "تطايروا بالعشق الإلهيّ" دون عودة. وما هذا إلا الدليل على أن القلب الذي يتصرّف على حقيقته يجد فعلاً شوقه وراحته. بينما حـــالات العشـــق الساقطة التي تستوطن القلب تعني حالة "خدعة" فيه، تدوم ما دامت "الظلمة" والغشاوة التي لا تزيلـــها إلا "المعرفة" والنعمة.

من هنا نفهم لماذا يوجد عند القدّيسين رجاءٌ لا يتزعزع حتّى في أكبر خاطئ! ويرافقه أيضاً احترام كبير ومحبّة مدهشة! سبب هذا التفاؤل، حتّى في حالات تبدو معدومة، هو أن الخطيئة هي حالة انحراف للقلب وليست طبيعيّة. الخطيئة دليل العنف الممارس على القلب، الذي سيبقى يشتهي حريته التي لن يجدها إلا بالتقاط الحبّ الإلهيّ عشقاً له.

لا يحيا القلب الإنسانيّ على "الخبز" فقط بل يحتاج بالأكثر إلى "كلمة الله". ليس الإنسان مجرّد مستهلك للعالم بل خالقٌ ثانٍ بمعنى "الخلاّق". وفنّه هذا هو روحنة العالم. فالقلب الطاهر يطهّر العالم. العالم كلّه هو مكان لممارسة روحانية الإنسان، "خطيئته" الأساسيّة هي الحوار مع الدنيا دنيوياً، "وحياته" هي الحوار مع الله من خلال العالم روحيّاً. هذه هي الرغبة الحقيقيّة للقلب البشريّ. لذلك علينا أن نتوقّع في أيّة حالة استخدام خاطئ- خطيئة عودةً توبة قوية.

لم تتعاطَ المصريّة مريم مع الدنيا فقط دنيوياً، بل ومع المقدّسات أيضاً هكذا، لقد بلغت فيها قوّة الفجور أن تقصد اللذّة في رحلة حجّ روحيّة في عيد الصليب. ولكن ما هي قوّة ظلمة الفجور أمام شعاع الروح؟ قدرها أن تتبدّد! لقد جاءت مع الحجّاج في رحلة دعارة، لكن قلبها جمد أمام باب الهيكل. بينما كانت هي تخدع قلبها تمسّك هو بعشقه الحقيقيّ أمام خشبة الصليب. مهما ضغطنا على قلبنا لن نقدر أن نقتل فيه طبيعته وعشقه للإلهيات.

عندها تحوّلت قوّة الفجور إلى طاقات توبة. لقد قضت المصريّة عشر سنوات تضلّل قلبها بلذّات لا ترويه، لكنّها أروت عطشه في سبعة وأربعين سنة من النسك، بالأصوام والصلوات. "يا لاستحالتكِ الشريفة وانتقالكِ إلى ما هو أفضل أيتها الموقّرة ويا لشوقكِ الإلهيّ الماقت اللذّات الجسديّة، ويا لإيمانكِ الحارّ الإلهيّ يا كليّة المديح مريم..." تقول الترانيم (من الأودية الثامنة، سحر الأحد).

لنحرّر قلبنا ولنعطِه ما يحبّه فعلاً. "اعرفْ ذاتك" يقول القدّيس باسيليوس الكبير. أعطِها طعامها الحقيقيّ. ليست التوبة نقلة من راحة إلى أتعاب؛ بالعكس التوبة تحرّر. قد تكون لحظة التوبة قاسية وذلك بمقدار عمق الأوحال، لكنّها استراحة لقاء العاشق بالمعشوق.

القلب البشريّ يمكنه أن يكون مسرحاً لعشّاقٍ عديدين، تختارهم الحريّة البشريّة. ولقد جـــال في قلب هذه المصريّة معشوقان، الدنيا والله. لكن القلب لم يرتحْ إلاّ في خالقه ومبدعه ومعشوقه الحقيقيّ. التوبة هي عيش الحبّ الحقيقيّ للإنسان.

آميـــــــن